٦. رُؤى

(١) الفهم

تم ابتذال فكرة أن كل انسان يحمل في تكوينه الخير والشر، وأن تصرفات البشري الفرد تنبع من سيطرة أحد الجانبين على الآخر بشكل لا يصدق. ما يؤلم أمثالي أن ابتذال العبارة بتكرار سماعها على ألسن العامة نزع منها حقيقة كونها حالة رآها البعض رؤية عين اليقين.

لا أتحدث عن معايشة البشر للحكم على غلبة أحد الجانبين على الآخر، بل عن رؤية صريحة لتداخل الخير والشر في أرواح البشر. رؤية عبر قدرة منحت لي - وربما لغيري - تُمكن من النفاذ إلى عمق سحيق واختلاس النظر. جلُّ أمثالي لا يتحدثون عما يستطيعون رؤيته، لأنهم لا يفهمون ما يرون فيتجاهلونه معتقدين أنه أضغاث أحلام.. أما أنا فقد فهمت.. وقررت أن أتحدث اليوم..

شرح تلك النوعية من القدرات أصعب من تخيّل أي شخص، لأن جزءً كبيراً من الفهم يكون عن طريق قدرة المتلقي على تجسيد ما يتم شرحه، وهو مستحيل في حالتنا تلك..

(٢) الرؤية

كان من الحتمي أن يقودني ما أملك إلى المرض النفسي، فمن يطلعه الله على سرائر البشر لا مكان له بين العقلاء، ولم أخرجٍ عن هذا الطبيعي، وأصبت بالصرع في البداية، ولم يستطع طبيبٌ أن يعالج ما بي لأنه رفض أن يصدق سبب المرض من الأساس. عرفت أنني وحدي في مواجهة ما أملك، فداومت على محاولة طرق باب السيطرة على رؤاي حتى فُتح لي باب السيطرة عليها تدريجياً فوصلت إلى سيطرة جزئية أستطيع بها مبدئياً أن أصف ما أملك.

أول محاولة لشرح ما أستطيع رؤيته كانت في الحافلة العامة لصديقي الأوحد.. شعرت أنني أرغب بحق في أن أُخرج ذلك الأمر من نفسي ولو ظنني مجنوناً. كنت أستقل الحافلة يومياً تقريباً في طريقي إلى الجامعة، حتى أن المحصلين والسائقين أصبحوا يعرفونني بشكل شخصي، وكانت الحافلة مجالا خارق

المثالية للتدريب على فهم رؤاي نظرا للكم الهائل من أنماط البشر الذين كنت التقي بهم فيها.

بدأت الحديث مع صديقي كما كان مدرس اللغة العربية يشرح لنا كيف نكتب موضوع التعبير، خلفية تاريخية ثم دخول في الموضوع.. أنا موقن أنه لم يعد يتابع ما أقول بعد بضعة جملة.. لكن من يهتم..؟

كانت الرؤى تتكاثر في ذهني منذ سنوات بعيدة.. استغرق الأمر ما يربوا عن السنة لأفهم أن ما أتلصص لمشاهدته متعلق بسريرة من أراهم ولو لم أعرفهم، وخمس سنوات أخرى لأستطيع التفريق بين من تألقت سريرته بالنقاء، ومن سلك سبيل خائنة الأرواح التي تشبه في قانون الاستبصار خائنة الأعين الفاضحة للمتظاهر بعكس ما يبطن.

سيطرة الجانب المظلم على نفس أحدهم كان انعكاسه غريباً، إذ يتجسد أمامي كأسوأ مخاوفي أنا. منطقية ذلك فهمتها بعد سنوات، فالشر لا يكون شراً إلا لو ارتبط ببعثرته على المحيطين بمن يحمله واختاره.. لا يوجد شرير منعزل بعبارة أخرى.. كانوا يبعثرون شرهم عليّ، فكان الحكم على غَلَبَةِ الشر لدى من أراهم ينعكس

عليّ أنا فيما أشاهده، ثم يطاردني في أحلامي بعد ذلك. أنا ممن لا يخافون بسهولة، لكنني كنت أرتعد من مشهد واحد فقط يظهر في أحلامي ويأتي من مكان ما. أسوأ مخاوفي كانوا أولئك الرجال الذين تحمل ملامحهم تشوهات الزوائد الغير منتظمة. رأيت مثلاً قريبا في المتحولين من بحارة سفينة الهولندي الطائر (Flying Dutchman) في فيلم قراصنة الكاريبي الجزئيين الثاني والثالث، بيد أن صوري لم تكن بزوائد سمكية وإنما زوائد بيولوجية غير منظمة تبدوا وكأنها نَمَت على وجوههم ورؤوسهم ربما كعلامات شرور لم يكفها أن تُسجل في صحيفة ذنوبهم لدى الله، فظهرت في خِلقَتِهم، ثم جاءوا ليطاردوني في أحلامي، والأسوأ انهم صاروا بعد ذلك يلبون نداء رؤيتي لشر داخل أحدهم فيحضرون.

(٣) اللغز

لماذا اخترت المشاهدة..؟ وكأن لي خيارٌ في ذلك...!!!!

التذمر يستوجب وجود أمر مزعج، وتذمري على عدم وجود خيار لي فيما أرى لم يكن بسبب ذلك الجانب المرعب الذي

يطاردني.. تعودت على شياطيني وتعايشت معها وتقبلت رعبها. ألمي العنيف كان عند رؤيتي لسريرة يغلب فيها الجانب النقي..
ارتبط النقاء بالضوء، الضوء في ذاته أمر رائع، لكن الحقيقة أن الضوء المتداخل إن سُلِّطَ على عيني انسان بشكل منتظم لفترة، كفيل أن يحول حياته جحيماً، أما لو سلط بشكل متقطع بانتظام فهو الدرك الأسفل من جهنم. نحتاج إلى الظلامِ بنفسِ قدر احتياجنا للضوء، وأنا كنت أرى الاثنين، أحدها تجسيدٌ لأبشع مخاوفي، والآخر ضوءٌ ينبع من بؤرة ساطعة كأنها مصدر مياه في نافورة تقذف نوراً بدلاً من الماء. شلالات ضوئية ثابته تنساب في كل مكان بلون أبيض يتأرجح بين الانطفاء والتألق. ازدياد التألق واندفاع مسارات جديدة في الشلال الضوئي كان يعني على الأرجح غلبة صفات مميزة في سريرة حامل/حاملة الضوء.. ربما كانت الملائكية، الإيمان، النقاء، الصدق.. لا أدري.. لكنني بعد معاناة عنيفة مع شلالات الضوء البيضاء أصبحت أستطيع تفسير ما أرى، وأحيانا وضع نمط له، وازداد النمط ثباتاً وتماسكا مع ازدياد تلصصي إلى سرائر من أرى.
حتى جاء اللغز مع ظهورها..

(٤) الخيط الأرجواني

مع ثقتي المتزايدة في سيطرتي على جوانب موهبتي، بدأت خيالات التألّه تغزوا نفسي.. شاب في الثالثة والعشرين يطّلع على سرائر من تقع عينيه عليهم فيعرف أعمق ما يخفونه عن أقرب الناس إليهم، بدأً من أولية غلبة الخير أو الشر وصولاً إلى رؤية جوانب من الرغبات الدفينة خلف أسوار الحضارة الزائفة.

أحد شخصيات رواية من روايات الأب الروحي لجيل مواليد الثمانينيات وما بعدها الراحل د. أحمد خالد توفيق - "إيجور تاركوفيسكي" على ما أتذكر - كان يستطيع فعل شيء مشابه، لكن الأمر مع إيجور كان تخاطراً عقلياً بحتاً، أما أنا فشعور داخلي وثقت في نتائجه وما يريني إياه وأتقنت التحكم فيه ودراسة أنماط ما أراه عبره حتى تغير كل شيء عندما رأيت ذلك الشلال الأرجواني داخل فتاة وقفت قريباً منها في حافلة الصباح إلى الكلية.

اللون الغالب للضوء في العادة كان الأبيض، كانت الومضات الأرجوانية الخافتة تتناثر في بعض الأحيان هنا وهناك بين من يحملون أضواء النقاء البيضاء، لكنها - ولأول مرة - كانت فيضاً

من فيوض بؤرة الضوء المتألقة بشكل غير عادي مع فتاة الحافلة التي عرفت لاحقاً أنها تدرس في ذات جامعتي وكليتي.

انطبع في ذهني كل تفاصيلها، طولها، ما كانت ترتديه، حتى لون صبغة الأظافر الوردي الهادئ لم يفارق ذهني حتى اليوم كلما تذكرتها. لم يكن تذكر تفاصيل من أتلصص عليهم مألوفاً، فمن يطلع على السرائر تستوي في عينيه القوالب الظاهرة للناس، لهذا كان الأمر مختلفاً وغير مسبوق معها.

ما أملك تحول إلى ما قبل رؤية مايا - وهو اسمها - وما بعد رؤيتها. كانت الصور مع الجميع تتداعى أمام عيني بالشكل الذي اعتدته، وتنقلب رأساً على عقب متى رأيتها سائرة في مكان تصادف وجودنا فيه معاً، في الحافلة، في مطعم الكلية، في إحدى المحاضرات التي نحضرها معاً.. تحدثت معها حديثا عابراً مرة أو اثنتين ولم يَخف عني نظرة ارتياب مرت على عينيها مع تغير ملامح وجهي أثناء حديثنا المقتضب.. لم أخبرها طبعا أن اللون الأرجواني تزايد معها حتى صار غالباً على كل ما ينبعث من بؤرة روحها.. بل عوضاً عن ذلك قررت تجنبها بعد أشهر من شبه مطاردتها لمحاولة فهم ما يحدث.

ظننت الأمر حباً، وأن ذلك اللون يشير إلى مشاعر ما بداخلي نحوها.. عزوت الأمر لذلك بعد قراري الهروب من رؤيتها، وبعد ذلك لسنوات بعد خروجي من الكلية وانقطاعي عما أعرف وعمن أعرف.. المشكلة أن أمرا ما بداخلي لم يكن مقتنعاً بهذا التفسير، ربما لأن عقلي لم يؤمن أبدا بالحب بصورته الرومانسية التي يتعارف عليها القوم.. لا مجال لإيمان بالحب مع من عرف البشر كما عرفتهم. كل حبٍ زائل، وكل شعور له دورة حياة تنتهي بموت الشعور.. لا يوجد شعور خالد أبد الدهر، بل يأتي الخلود المزعوم من حالات تقمص يعيش فيها البشر ليقنعوا أنفسهم باحتمال اقترابهم من مستوى الملائكة أو الشياطين.
وأنا من البشر.. فربما كان ما كان مع "مايا" مجرد حالة تقمص..

(٥) الجنون

انتهى كل ذلك الآن بعد عشرين عاماً من بدايته. لم يعد لموهبتي القديمة أي وجود أو تأثير في حياتي وأنا أطرق أبواب الأربعين الآن. ربما لأنها كانت مجرد وهم، أو كانت هبة لفترةٍ ونُزعت مني لسبب ما. لم أعد أرى نوافير ضوء أو أشباحاً تحمل زوائد في

وجوهها. لم يتبق من عالمي الافتراضي إلا ذكرياتٌ تومض مع كل متشابه مما كان في هذا العالم.

عندما تُدرب نفسك لسنوات على أدوات لمواجهة حقيقة تمر بها، غافلاً عن تلك اللحظة التي قد تفقد فيها تلك الحقيقة، لأنها لم تكن حقيقة، لأنه لا يوجد حقيقة مطلقة.. تتحول انسانيتك إلى مسخ بدرجة ما.

دربت نفسي مثلا على تأخير رد فعلي تجاه أي حدث لتجنب إظهار رد فعل غريب لمشهد أراه في عمق نفس ما ولا يظهر على السطح.. فصار رد فعلي الآن متأخراً بشكل كارثي، عشرات من لحظات الحسم أظهرت رد فعل بعد فواتها بسنوات، أو في أضعف الظروف بعد أيام.. بتعبير آخر أدق بعد فوات الأوان.. كنت أبكي على فقدان أناس أحببتهم بعد سنوات من فقدهم، أسبُ وألعن في مشاجرات انتهت منذ أسابيع، وأصيغ جملاً مفحمة لحوارات قُضي أمرها، وتحملت تبعات صمتي فيها..

الارتباك الشعوري كذلك كان من الأثار الدائمة التي لازلت أعاني منها.. فتدريبي لنفسي على حيادية الشعور للاستمتاع بالغوص في السرائر أفقدني مذاق المشاعر، ثم أفقدني القدرة على

فهم مذاق المشاعر أصلا.. فلم أعد أعرف كيف الحب..؟ وكيف الحزن.. ما هو الاستمتاع..؟ وكيف تكون النشوة..؟
عشت وأعيش ذلك الجحيم لأنني حاولت اكساب نفسي درعاً واقيا يحميني من الجنون بسبب موهبة افترضت دوامها أو وجودها من الأصل، فانتهي بي الأمر مجنوناً يدفعه ما اكتسبه لمزيد من الجنون.. استغرب أنني لم أدخل في نفق الإدمان حتى الآن..؟ لكنه قادم بلاشك..

(٦) أرض ثابتة

ممارسة الحياة أم التسكع الأبدي في بُعدِ الخيال..؟ اخترت الخيال لفترة طويلة فتركني هو لسبب ما. الآن أنا أمارس الحياة.. اعتنق ماديتها التي لا تسمح أبدا بتلك اللذة التي تشعر بها في الروح عندما تتطلع لذلك العالم الخفي الآخر أو تمر عبره. ثم لحظات اشتياق لعالم أعرف أنني لم أعد أستطيع ولوجه مرة أخرى. لابد أن يخترع اللغويون مصطلحاً آخر غير الاشتياق والافتقاد لما نريد العودة له ويرفضنا هو..
هل لمحطات الحافلات خاصية مميزة تجتذب هذه الأفكار..؟ كما كانت ملجأً لي من قبل لممارسة تلصصي. الغياب في خواطري لم

يعد خيارا مطروحاً الآن لأنني لست وحدي، وإنما مع مجموعة من البشر ممن يُطلقُ عليهم أصدقاء، خارج بوابة السينما بعد حضور عرض سخيف لفيلم أكثر سخفاً. تتفاوت درجة معرفتي بهؤلاء فمنهم من كان معي في عمل سابق، وبعضهم يجمعني به العمل الحالي، وآخرون لا أعرفهم إلا عن طريق كونهم أصدقاء للنوع الأول أو الثاني.

صخب غير عادي، وتداخل أصواتٍ لا يصدق، مع عمود إنارة يرتعش نوره، وقطرات من ماء تتساقط من مظلة السينما الممتدة على الطريق لبضعة أمتار لتغطي مدخل المبنى. اللوحة أوسع من ذلك.. فهناك عاشقان يعبران الطريق وقد أحاط الذكر كتف أنثاه بذراعه، حافلة صغير تعبر الطريق بسرعة لتنثر بعض الماء فيطاردها كلب أجرب بنباح لا يتناسب مع جسده الهزيل، فيثير ذلك رعب رجل اتخذ من سورٍ متهالك مرحاضاً يتبول عليه. رجل عجوز يقرأ جريدة إلى جوارنا على محطة الحافلة ويرمقنا بين الفينة والفينة بنظرة مسطحة.. عشراتٌ من البشر يعبرون الطريق ويستقلون حافلة المنصورة التي تقف على المحطة القريبة منّا.. عديد من مخلوقات الله تتفاعل في لحظة واحدة شرد فيها

شخص معتوه مثلي وتأملهم.. ثم تساءل عن تلك اللحظة. هل تم ترتيب تلك اللوحة بهذه الطريقة..؟ هل وُضِعَ جدول زمني دقيق لتواجد كل ما سبق في اللحظة المذكورة..؟ هل يصنف ذلك كعلاقة..؟ هل هناك ما يربط ما أراه مع بلايين اللوحات الأخرى في بلايين الأماكن المختلفة..؟ بل.. هل يرتبط كل هذا بتناغم الكون ومسارات الكواكب والمجرات، ومولد واحتراق النجوم..؟ ومن يمكن أن يشاهد كل تلك اللوحات وينسقها..؟ الإجابة كانت ومضة أرجوانية عنيفة أغشت بصري للحظات فأغلقت عيني ثم فتحتها على فتاة من المجموعة التي ترافقنا تبتسم وتقول:

- هل أعجبك الفيلم..؟

هل هو سؤال ختام التأمل.. لا أعتقد لأنني ابتسمت وتأملت وجهها للحظات.. هل يعقل هذا..؟

- هل تقابلنا من قبل..؟

الرد كان غريبا، فابتسمت مرتبكة وقالت

- ربما.. لا أذكر أنت تعرف الزهايمر..

أنا أعاني العديد من الأمراض النفسية والعضوية.. الزهايمر ليس أحدها، أنا لا أملك في الحقيقة إلا رصيد ذكرياتي التي لا أستطيع أن أنساها حتى لو أردت ذلك ومهما مر عليها من زمن. لوحتي ليست ومضة مكانية من حاضر يتناغم.. لوحتي نظرة في ماض أحاول ربط أشلائه بعضها ببعض. أذكر كل إيماءة، والتفاتة وجملة وحدث.. شرط أن يعني لي شيئاً، وأنا ظللت عقداً من الزمن يعني لي أي شيء كل شيء..

- هل كنتي في كلية ال××××××..؟ هل كنت وقتها تقطنين في ××××××..؟ هل كنت تستقلين حافلة رقم ××..؟

لقد كنت أقف فوق رأسك تقريبا كل يوم وأتلصص. أنت "مايا" وأنا من كنت أراقبك لأفهم، ولم أفهم.. وظللت أتساءل حتى يومي هذا عن ذلك القوس الأرجواني الذي كنت أراه داخلك ولم أعد أستطيع رؤيته الآن لكنني أتحدث إليك شخصياً.. لم تصدق ما يحدث، ولم أصدق أنا الآخر.. لكننا مجّدنا الصدفة بالتعارف، والحديث والإضافة على صفحة التواصل الاجتماعي في اليوم التالي.. عادت "مايا" إلى المنزل تحمل صدفة

لن تنساها، وعدت أنا إلى المنزل بلا أي إجابات سوى أنني رأيتها من جديد... وربما خيط.

(٧) وختاماً

- أنت تعرف "حسّان الأخرس منين..؟"

كانت هذه الرسالة الأولى التي تلقيتها منها في الصباح التالي. أعاني حالة ثلاثة أرباع النوم منذ بدأت أدرك أن الإنسان يجب أن ينام أصلا. دوماً لدي ربع مستيقظ من عقلي يعي ما يحدث ويفكر في أحداث متفرقة وأنا نائم، وربعي المستيقظ كان معها الليلة. أما عن تسميته ربع فهو تيمناً بمن يمتلكون ربعاً معطوباً في أذهانهم.. في الحقيقة أنا أملك ربعاً واحداً سلمياً.

الأخرس هو زوج صديقة أختي المقربة. أختي التي قررت منذ عشر سنوات أن تهاجر إلى الولايات المتحدة واندمجت في ماكينة الحياة هناك حتى أضحت الحياة بالنسبة لها في أي مكان آخر مستحيلة. صديقة أختي المقربة - كما عَرَفَتْ أختي لاحقاً - كانت جارتنا في حيّنا السكني في القاهرة قبيل أن يقرر والدها أن يقوم بنفس خطوة أختي منذ عشرين عاماً هي ابنه خالة "مايا" التي بدأت تفقد النطق من هول تعدد الصدف الغريبة مع

شخص يعرفها منذ خمسة عشر عاما بالنسبة له، وخمسة عشر ساعة بالنسبة لها..

صخب غير عادي، وتداخل أصواتٍ لا يصدق، مع عمود إنارة يرتعش نوره، وقطرات من ماء تتساقط من مظلة السينما الممتدة على الطريق لبضعة أمتار لتغطي مدخل المبنى. عاشقان يعبران الطريق وقد أحاط الذكر كتف أنثاه بذراعه، حافلة صغير تعبر الطريق بسرعة لتنثر بعض الماء ليطاردها كلب أجرب بنباح لا يتناسب مع جسده الهزيل، فيثير ذلك رعب رجل اتخذ من سورٍ متهالك مرحاضاً يتبول عليه. رجل عجوز يقرأ جريدة إلى جوارنا على محطة الحافلة ويرمق بين الفينة والفينة تجمعنا أمام السينما متسائلا عن أولئك الشباب ناقصي التربية الذين يسمح لهم أهلهم بالتأخر خارج منازلهم حتى التاسعة مساءً، خاصة وأن بينهم فتيات.. عشراتٌ من البشر يعبرون الطريق ويستقلون حافلة المنصورة التي تقف على المحطة القريبة منّا.. عديد من مخلوقات الله تتفاعل في لحظة قابلت فيها فتاة كنت أراقبها لأفسر رؤية لما تحمله في سريرتها والذي تلصصت لرؤيته من خلال

موهبة حملتها لفترة وفقدتها بلا سبب. تلك الفتاة ابنة خالة جارة لنا ستكون صديقة أختي المقربة بعد خمسة عشر عاماً..

هل تم ترتيب تلك اللوحة بهذه الطريقة..؟ هل هناك ما يربط ما أراه مع بلايين اللوحات الأخرى، والصدف الأخرى، في بلايين الأماكن المختلفة..؟ هل هي صدفة من الأصل..؟ هل يوجد ما يسمى بالصدفة..؟ هل الضوء الأرجواني كان يعني أن طريقانا سيتقابل يوما..؟ هل يرتبط كل هذا بتناغم الكون ومسارات الكواكب والمجرات، ومولد واحتراق النجوم..؟

بدا النسق من رؤيا.. وانتهى بـــ.....لا أدري إلام انتهي..؟ ربما عشرات الأسئلة، إلا أننا اتفقنا أن هناك تمجيد إضافي مطلوب لتلك الصدفة.. التي لم تكن بالنسبة لي مجرد صدفة. انتزعتني من خواطري عندما قالت لي:

- سعدت جدا بالتعرف عليك..

تمت...